



تربيـة الذات .. لـماـذا ؟؟

الحمد لله الذي خلق الناس وسواها وعدد الأنفس وزکى منها ما زکها وتعهد ب nefous
الموحدين وریها ، واصلی واسلم على المریب الأول صاحب النفس الزکیه والروح الطاهره
الصفیه محمد بن عبد الله وعلى أصحابه وآل بيته ومن ولاده . أما بعد

الوصیة الصدیقیة للشامۃ العمریة : (إن أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك ، فهذا الجهاد
يحتاج أيضاً إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهو وشیطانه عليه، وحصل له النصر
والظفر، وملك نفسه، فصار ملکاً عزیزاً، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك، غلب وقهر
وأسر، وصار عبداً ذلیلاً أسیراً في يد شیطانه وهواه) "جامع العلوم والحكم، ابن رجب
الحنبلی، " (1/196) .

إن هذا الموضوع الذي نحن بصدده الآن يعد واحداً من أخطر المواضیع التي تمس واقع
الشباب وتهمهم، لأنه إذا آتى ثماره، فإن هذا سیمثل نقلة بعيدة في حیاة الكثير من الشباب،
إن ما تحدث عنه معکم في هذه الصفحات، هو كيف تربی نفسك ، فالحادیث عن تربیة
النفس وتروید الذات من الأهمیة بمكان، أتدري لماذا ؟ لأن أول مسئولیاتك هي مسئولیتك
أمام نفسك، ومن هنا كان حرجي بك أيها الحبيب أن تعتنی بتربية نفسك وإصلاحها، والسعی
لما فيه سعادتها يا ذن الله في الدینی والآخرة.

ماذا نقصد ؟

وریما یقفز إلى ذهنک الآن سؤال يقول: ترى ما المقصود بالضبط بتربية الذات، والإجابة عن
هذا السؤال تکمن في أننا حينما نتحدث على وجه العموم عن تربية الذات ، أو على وجه
الخصوص عن دور الشاب في تربية نفسه؛ (إإننا نقصد بها ذلك الجهد الذي يبذله الشاب من
خلال أعماله الفردیة، أو من خلال تفاعله مع برامج عامة وجماعیة لتربية نفسه؛ فهي تمثل في
شقین : **الأول**: جهد فردي بحث يبذله الشاب لنفسه، **والثاني**: جهد فردي يبذله من خلال
تفاعله مع برامج عامة) التربية الذاتیة، د.محمد الدویش.

لـماـذا نـربـي أنـفـسـنا ؟

إننا في أمس الحاجة لتربية أنفسنا؛ وإنما انطبق علينا وصف الشیخ المریب ابن القیم رحمه الله
حينما تحدث عن هذا الذي أهمل في نفسه، ولم تنهض همته للعيش بنفس طیة طاهرة ثابتة
فقال: (فلا يزال في حضیض طبعه محبوساً، وقلبه عن کماله الذي خلق له مصدراً منکوساً،
وقد سأم نفسه مع الأغnam راعیاً مع الهمل، استطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش
العجز والکسل) (ابن القیم، مفتاح دار السعادة، (64/1)،

وهنا ربما يقفز إلى الذهن سؤال آخر، حول أهمية مطالبة الشباب ببذل الجهد واستفراغ الوعي في تربية نفسه، فما ترى ما أسباب هذه المطالبة وما أهميتها ومسوغاتها؟ لاريب أن هناك أسباب عدة تدفعكم أيها الشباب لحمل مسؤولية أنفسكم وبذل الجهد في تربيتها، وإن من هذه الأسباب ما يشترك فيه الصغير والكبير، الذكر والأنثى، ومن ذلك :

أوللا : لا تزر وازرة وزر أخرى

إنه قانون المسئولية الفردية الذي يريينا عليه القرآن، فكل منكم أيها الشباب بل كل إنسان خلقه الله ويراه مسئول، نعم إنه مسئول مسئولية فردية، وهو هو القرآن واضح البيان في هذه القضية :

فاسمع أيها الحبيب: {وَلَمَّا تَرَرُ وَازْرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيَنْتَهِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلَيْمٌ بِذَاتِ الصَّدُورِ} الزمر: 7 ،

ويقول جل في علاه: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةً} المدثر: 38.

(إنك حين تقرأ في نصوص القرآن الكريم أو في نصوص السنة النبوية؛ تجد التأكيد الواضح على أن كل فرد مسئول مسئولية خاصة عن نفسه، حتى ذاك الفرد يتعرض إلى الإضلال والغواية من خلال الضغط الذي يمارسه عليه غيره، سواء أكان ضغطاً نفسياً أم ضغطاً اجتماعياً - أيًّا كان مصدر هذا الضغط - لا يعفيه ذلك من المسئولية) التربية الذاتية، د. محمد الدويش،

وإذا طالعنا القرآن الكريم نجد في آيات عديدة نماذج من الحوار الذي يدور يوم القيمة بين الذين اتبعوا وبين الذين اتبعوا، أو بين الذين استضعفوا والذين استكبروا، فيأتي المستضعفون يطالبون أولئك المستكبرين الذين كانوا سبباً في إضلالهم وغوايتهم أن يتحملوا عنهم جزءاً من العذاب، فاسمع معنى لهذا الحوار: {وَبَرَزَوا لِللهِ جَمِيعاً فَقَالَ الْمُضْعَفُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزِعُنَا أَمْ صَبَرَنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} إبراهيم: 21.

مثال

فهذا الشاب الذي اتبع صديقه وسار وراءه يتخطى في طرقات المعاشي، وتزل معه قدمه في أودية الذنوب والرزايا، حتى قاده إلى طريق مظلم، إنه طريق الضلال والانحراف بعيداً عن طاعة المولى جل في علاه، سيأتي هذا الصديق يوم القيمة - الذي أضل الشاب - يحمل وزر نفسه ووزر هذا الذي أضلته، كما قال الله جل في علاه: {لَيَحْمِلُوا أُوزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أُوزَارِ الَّذِينَ يُضْلِلُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا لَا سَاءَ مَا يَزَرُونَ} النحل: 25.

ولكن هذا الشاب المستضعف، ترى هل يعفى من المسئولية أمام رب البرية سبحانه وتعالى، إنها الحقيقة أقولها في أسف: لا لن يعفى من المسئولية، بل ولن يغنيه أن يتلفت يمنة ويسرة، تارة يطالب صاحبه الذي أضلته ، وتارة يرجو منه أن يتحمل عنه جزءاً من العذاب {إِنَّا كُنَّا تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزِعُنَا أَمْ صَبَرَنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} إبراهيم: 21.

ومع هذا كله لن يُعفى من المسئولية، والآن أريد أن أسأل كل شاب أعلم منه أن يحمل عقلًا وفكراً وقلباً فيه كثير من إيمان ياذن الله: أليس هذا وحده أخي الحبيب دال على المسئولية الفردية للإنسان، في أي بيئة وفي أي مجتمع وجد، وحتى لو سار وراء صاحبه وهو يظن أنه يحسن صنعاً فإن ذلك لا يعفيه أمام الله عز وجل.

فهيأً أيها الشاب بعدها علمت هذه الأهمية لتحمل المسئولية الفردية وتربية الذات سارع في هذا المضمار، فتهيأً واستعد ما من حمل ما ذكرت لك بذ.

ثانيًا: ستأتي يوم القيمة فرداً

وهنا نقف مرة أخرى مع كتاب ربنا المعجز، الذي والله لو تدبرناه ووعينا ما فيه لكان لهذا التدبر وهذا التأمل أعظم الأثر في هداية نفوسنا ووضوح طريقنا، فها هو القرآن يطل علينا من جديد يبيث فينا الأهمية حول نفس القضية، قضية تربية الذات وتحمل المرء لمسئولية نفسه والعمل الجهيد على تربيتها، فهذه المرة يخبرنا القرآن أن كل إنسان سيحاسب يوم القيمة فرداً أمام الله تبارك وتعالى، وهذا مما يعمق لدى الإنسان بلاشك قضية تحمل المسئولية وأهمية تربية الذات؛ إذ أنها ستقف يوم القيمة لتسأل عما قدمت في حياتها الدنيا ، كما حكى المنان في آي القرآن: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجِزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ} البقرة: 321

وفي آية أخرى يقول عز وجل: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَتِيَ الرَّحْمَنَ عَبْدًا} (93) **لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدَهُمْ عَدًّا** (94) **وَكُلُّهُمْ أَتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرِدًا** [مريم: 93-95] فكل إنسان سيقدم على الله فرداً وحيداً، وسيحاسب محاسبة فردية؛ فلا بد أن يتتحمل مسئولية نفسه في تربيتها وتزكيتها إلى طريق الخير والاستقامة، حتى يجد ما يسره في يوم لا ينفع فيه لا مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، حملته نفس زكية.

وهذا هو المربي الأعظم، والمعلم الأول خير الورى يطل علينا من شرفات الآخرة: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان؛ فینظر أيمان منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر تلقاء وجهه فيرى النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار ولو بشق تمرة) رواه البخاري ومسلم.

ثالثًا: الإنسان أعلم بنفسه

أما الأمر الثالث والخطير الذي يكشف لك أيها الشاب عن هذا السؤال الجوهرى الهام، لماذا نربى أنفسنا؟ فتأتي الإجابة فيه منطقية تتوافق والعقل السليم والفكر البصر الصحيح، إذ أن الإنسان يقوم بتربيته نفسه وذاته لأنه أعلم بمداخل النفس التي يحويها بين جنبيه، وأعلم بجوانب الضعف والقصور فيها، ومن هنا فهو الأصلح والأقدر على التعامل مع نفسه بالأسلوب الأقوم، فإنه من الممكن أن يتصنع المرء أمام الناس ويتظاهر أمامهم بالخير، أو ربما يدعوه لذلك الحياة والمعاملة، أما ما في نفسه فهو أعلم بها من سائر البشر، حينئذ فهو أقدر من غيره على علاج جوانب القصور في نفسه، والأخذ بها إلى شاطئ الأمان والآمان محافظاً عليها قدر المستطاع من كل ذلة مذلة، أو فتنه مضيلة.

فَاللَّهُ عَزَّ وَجْلَ (لَمْ يَخْلُقِ الْإِنْسَانَ عَبْتًا وَلَمْ يَتَرَكْهُ هَمْلًا، فَبَعْدَ أَنْ سَوَاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ أَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ الْمُقْرِينَ، ثُمَّ أَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ مَعَ الْجَانِ لِيَكُونَ الْابْتِلاءُ وَالْامْتِحَانُ، وَاسْتَخْلَفَ فِي الْأَرْضِ لِيُعْمِرَهَا بِطَاعَتِهِ، يَقُولُ الدُّوْسِرِيُّ رَحْمَهُ اللَّهُ: وَالْخَلِيفَةُ لِلَّهِ فِي أَرْضِهِ هُوَ الْمَكْلُفُ بِأَحْكَامٍ يَطْبَقُهَا عَلَى نَفْسِهِ وَيَنْفَذُهَا عَلَى غَيْرِهِ) صَفْوَةُ الْآثَارِ وَالْمَفَاهِيمِ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الدُّوْسِرِيِّ، (2/72).

(يَرِيُ التَّرَبِيوُونَ أَنَّ الْعِلْمِيَّةَ التَّعْلِيمِيَّةَ (تَعْلِمًا وَتَعْلِيْمًا) تَتَكَوَّنُ مِنْ ثَلَاثَ عَنَاصِرٍ هِيَ: الْمَدْرَسَةُ وَالْمَنْهَاجُ وَالْتَّلَمِيْدُ، وَمَا لَا شَكَ فِيهِ أَنَّ لِلْمَدْرَسَةِ دُورًا كَبِيرًا فِي تَنْشِيَّةِ الْأَفْرَادِ وَإِصْلَاحِ الْمَجَمَعَاتِ، إِلَّا أَنْ هُنَّاكَ أَسْلُوْبًا آخَرَ لِتَلْقَيِ التَّرْبِيَّةِ وَتَشْرُبِ الْمَعْرِفَةِ مِنْ دُونِ الْمَدْرَسَةِ، وَهُوَ مَا يَعْرِفُ بِالتَّرْبِيَّةِ الْذَّاتِيَّةِ أَوِ التَّلَقَائِيَّةِ، حِيثُ يَرِيُ الْفَرَدُ نَفْسَهُ وَيَوْجِهُهَا وَجْهَةً سَلِيمَةً بِمَا يَوْافِقُ الْغَايَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أَوجَدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجْلَ عَلَى هَذِهِ الْبَسِيْطَةِ وَصَبَرَهُ فِيهَا خَلِيفَةً.

وَلَذَا فَإِنَّ لِلْفَرَدِ مَسْؤُلِيَّةٌ عَظِيمَةٌ تَجَاهَ نَفْسِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ، سَوَاءَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى مَقَاعِدِ الْدِرْسَةِ أَوْ فِي الْعَمَلِ أَوْ فِي الْبَيْتِ أَوْ فِي الشَّارِعِ، فَهُوَ مَطَالِبٌ بِبَلوَغِ الْكَمَالِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَنْشَدَهُ كُلُّ إِنْسَانٍ بَلْغَ مَرْحَلَةَ الرُّشُدِ وَالْتَّكْلِيفِ، وَلَنْ يَتَأْتِيَ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْمَنْهَاجِ الْإِلَهِيِّ،

قَالَ تَعَالَى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أَمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (الْأَنْعَامَ: 162-163) التَّرْبِيَّةُ الْذَّاتِيَّةُ، دَهْشَمُ عَلَيَ الْأَهْدَلَ.

هَمْسَةٌ فِي أَذْنِ مَحْبِ

أَيُّهَا الشَّابُ الْغَالِيُّ وَالْأَخِيُّ الْجَبِيبُ، اعْلَمُ أَنَّكَ تَبْصُرُ فِي الْلَّيلِ وَالنَّهَارِ جَهُودًا كَبِيرَةً، يَبْذِلُهَا الدُّعَاءُ الْمُخْلصُونَ وَالْعُلَمَاءُ الرِّبَانِيُّونَ وَالْتَّرَبِيوُونَ الْحَادِقُونَ الصَّالِحُونَ، إِنَّهُمْ يَبْذِلُونَ قَصَارِيَّ جَهَدِهِمْ مِنْ أَجْلِ إِصْلَاحِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ وَتَهْذِيبِ سُلُوكِهِمْ - خَاصَّةً الشَّابَ - وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْاحِبَ هَذِهِ الْجَهُودِ شَعُورٌ مُتَبَادِلٌ يَعْكِسُ مَا فِي قَلْبِ كُلِّ شَابٍ تَجَاهُ أَمْتَهُ مِنْ حُبٍّ، فَهُوَ يَرِيدُ لَهَا الْفَلَاحَ وَالرَّفْعَةَ وَالنَّجَاحَ، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا لَنْ يَكُونَ إِلَّا حِينَما يَتَغَيِّرُ أَبْناؤُهَا وَفَقَدْ سَنَةُ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَغْيِرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يَسْأَرُوهَا هُمْ وَيَنْدِفُعُوا فِيَغْيِرُوهَا مَا بِأَنفُسِهِمْ، إِذَا اسْتَشَعَرُنَا ذَلِكَ وَكُنَا عَلَى قَدْرِ مِنَ الْمَسْؤُلِيَّةِ أَظَنْ أَنَّ كُلَّ شَابٍ سَيُنْطَلِقُ حِينَها وَيَنْدِفعُ مِنْ تَلَقَّاءِ ذَاتِهِ إِلَى إِصْلَاحِ نَفْسِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ، مَا يَسْهُلُ وَيَسِّرُ مَهْمَةَ التَّرْبِيَّةِ الَّتِي تَسْعِيُ لِإِعْدَادِ الْإِنْسَانِ الصَّالِحِ. وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرِيَنَا عَلَى عَيْنِهِ وَيَصْلِحَ اَنْفُسَنَا وَقُلُوبَنَا وَيَسْمُوْهُ بَارُوْحَنَا أَنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.